في الأدب الفرنسي

٨ ـ الدوق دى لاروشفوكو

للدكتور حسن صادق

ولكى يخفف من حدة الانكار قال فى مكان آخر من كتابه « الحسد تقضى عليه الصداقة الحقة » (موعظة رقم ٣٧٦) . « مهما يكن الحب الصحيح نادراً ، فانه أقل ندرة من الصداقة الخالصة » (موعظة رقم ٤٧٣) . أى أنه يؤمن بندرة الصداقة النقية ولا ينكرها إنكاراً تاماً

وحكمه على الصدق والوفاء ليس بأقل غرابة من حكمه على الفضائل السابقة : « الصدق هو إخلاص القلب ولا يتصف به إلا عدد قليل من الناس . أما الصدق الذى يرى عادة فهو مداهنة بارعة ترمى الى اكتساب ثقة الغير » (موعظة رقم ٦٢) « بعض الكذب هو فى الأغلب طموح دقيق غير محسوس الى جعل أقوالنا تكتسب منزلة رفيعة واحتراماً كالذى يلهمه الدين » (موعظة رقم ٦٣) « الوفاء الذى يبدو من كثرة الناس هو حيلة ابتكرها حب الذات لاجتذاب الثقة » (موعظة رقم ٢٤٧)

ولنذكر الآن ما قاله عن الحب : « لا يوجد إلا نوع واحد من الحب ، ولكن يوجد منه صور زائفة لا حصر لها » (موعظة رقم ٧٤) « الحب كالنار لا يستطيع أن يحتفظ بوجوده إلا بالحركة المستمرة . ويسيىء العقاء فى اللحظة التى يكف فيها عن أن يأمل أو يخشى » (موعظة رقم ٧٥) « مثل الحب الصحيح كمثل ظهور الأشباح ، جميع الناس يتكلمون عنها ، ولكن قليلاً منهم من رآها » (موعظة رقم ٧٦) « كثير من الناس لو لم يسمعوا أحاديث الحب ، لما أحبوا » (موعظة رقم ١٣٦) « الغياب يخفف من وطأة الأهواء الضعيفة ويورث نار الأهواء القوية ، كالريح تطفىء الشمعة وتوقد النار » (موعظة رقم ٢٧٦) « إذا اعتقد الانسان أنه يحب صاحبته فهو مخطىء » (موعظة رقم ٣٧٤)

ثم قال عن الغيرة : « الغيرة تستمد غذاءها من الشك ، ويمحوها اليقين » (موعظة رقم ٣٢) « مبلغ ما فى الغيرة من حب الذات . أكثر مما فيها من الحب » (موعظة رقم ٣٢٤) « الغيرة أكبر الشرور ، وأقلها استدراراً لشفقة الذين يدركون أسبابها » (موعظة رقم ٥٠٣)

وهذا الرجل الذى كان يبجل النساء فى حضرتهن ، ولا يقول كلمة تؤذى شعورهن ، نراه عليهن فى مواعظه : « تمنع النساء نوع من الزينة يضفنه الى جمالهن » (موعظة رقم ٢٠٤) « عفة النساء هى فى الأغلب الحرص على سيرتهن وراحتهن » (موعظة رقم ٢٠٥) « الغرور وخشية العار وعلى الأخص المزاج ، تعمل فى الأغلب قيمة الرجال وعفة النساء » (موعظة رقم ٢٢٠) « الكثرة من النساء يمكن عشاقهن الذين يقضون نحبهم ، لا لأنهن أحببن هؤلاء المشاق ، ولكن ليظهرن أنهن جديرات بالحب » (موعظة رقم ٣٦٢) « قليل من النساء الشريفات من لم يسأمن عفتهن » (موعظة رقم ٣٦٧) « كثرة النساء الشريفات كنوز مخبأة ، ليست فى مأمن من العبث إلا لأن الرجال لا تبحث عنها » (موعظة رقم ٣٦٨) « الحليمات يفخرن بغيرة عشاقهن ليخفين الحسد الذى يضمرنه لغيرهن من النساء » (موعظة رقم ٤٠٦)

وحكمه على التواضع ليس بأقل قسوة من حكمه على العواطف والفضائل السابقة «لا يمدح الانسان غيره عادة إلا ليمدح» (موعظة رقم ١٩٦) « قليل من الناس من يملك الحكمة التى تجعلهم يفضلون النقد الذى ينفعهم على الثناء الذى يخدعهم » (موعظة رقم ١٩٧) « رفض الانسان المديح معناه الرغبة فى أن يمدح مرتين » (موعظة رقم ١٩٩)

ويستمر لاروشفوكو فى أحكامه على الأعمال والفضائل الانسانية حتى يصل الى هذا الحكم العام « تدخل الرذائل فى تركيب الفضائل ، كما تدخل السموم فى تركيب الدواء ، التبصر يجمعها ويخفف من وطأتها ويستخدمها بنفع فى مغالبة شرور الحياة وآلامها » (موعظة رقم ١٨٢)

وهو يعتقد أن الانسان فى حياته عبد لأهوائه وليست الارادة

شيئاً مذكوراً « فى القلب جبل من الأهواء لا يفنى ، حتى أن زوال أحدها هو فى الواقع طغيان هوى آخر عليه » (موعظة رقم ١٠) . فالنضال الذى نعتقد أنه قائم فى دخيلتنا بين الهوى والعقل ، بين الرغبة والواجب ، هو سراب محض . « الحظ والشرف يحكمان العالم » (موعظة رقم ٤٣٥) « مهما يفخر الناس بأعمالهم العظيمة ، فانها فى كثير من الأحيان ليست نتيجة تدبير عظيم ، ولكنها نتيجة المصادفة » (موعظة رقم ٥٧) « جميع صفاتنا تقريباً تحت رحمة الظروف » (موعظة رقم ١٧٠) « يخيل إلىّ أن لأعمالنا نجوما سعيدة وأخرى شقية ندين اليها بكثير من الثناء أو اللوم الذى يوجه الينا » (موعظة رقم ٥٨)

واذا كانت المصلحة الذاتية تقود الفرد والجماعة ، فكيف نفسر هذا الشعور المقد الذى يتبع ارتكاب أعمال مضادة للفضيلة ، وهو الندم ؟ يفسر لاروشفوكو الندم الخارجى ، أى الاعتراف بالزلل بقوله : « إننا نعترف بخطايانا لنصلح الفكرة السيئة التى علقت بأذهان الغير عنا » (موعظة رقم ١٨٤) . ويفسر الندم الباطنى بقوله : « ندمنا ليس أسفاً للشر الذى فعلنا بقدر ما هو خوف شر يصيبنا من جراء ما فعلنا » (موعظة رقم ١٨٠)

وبما أن المنفعة هى غرض الانسان الوحيد ، إذن يكون الخير الوحيد هو الخير المحسوس فى اغفاله . وبما أن الموت هو نهاية كل شر ، إذن الموت أكبر شر : « الشمس والموت لا يستطيع الانسان أن يحدق فيهما » (موعظة رقم ٢٦)

وقد ظن بعض الناس أن لاروشفوكو يستعمل هذه الكلمات : فى الأغلب ، عادة ، تقريباً ، كثرة الناس ، لياقة ومجاملة حتى يعتقد كل قارئ أنه من المستثنين ، ولكنه يستعملها على الأرجح لأنه يؤمن بوجود الفضيلة الخالصة ، ولكنها نادرة . والدليل على ذلك أنه لا يذكرها فى بعض مواعظه . ولنضرب مثلاً : « الصدق إخلاص القلب . . . موعظة رقم ٦٢ » فهو لا ينكر وجود الصدق ، ولكنه يؤمن بندرته . وهو يتمدى بطريقته الى كشف اللثام عن الفضائل الكاذبة التى يدعيها أكثر الناس

ومواعظ لاروشفوكو على قسوتها تنفع الانسان لأنها تجعله يتأمل نفسه ويراقب فضائله ويطهرها من الرذائل التى تختلط بها . ولهذه المواعظ أثر كبير فى تفكير فلاسفة أوربا النابهين أمثال كانت ، وشوبنهور ، ونيتشه ، وبنتام ، وستيوارت مل ، وبيربايل وهلفسيوس وغيرهم . وسنتحدث عن هذا الأثر فى فرصة أخرى ان شاء الله ؟

تم البحث

حسن صادق

بنك مصر

يساعدكم على الادخار
من أقرب وأضمن الوجوه

اتصلوا بقسم

بيع الأوراق المالية بالتقسيط

واستفيدوا
التخفيض المحسوس - والثقة الوطيدة
والأمان الموفور

خابروا قسم التقسيط رأساً بمركز البنك الرئيسى بالقاهرة
وفروعه بالأقاليم . وليس للبنك وكلاء ولا متجولون